البـــــاب الثالث

العلاقات الخارجية

obeikandl.com

obeikandl.com

العلاقات مع تيمور لنك:

إذا كانت مصر قد تمتعت في السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٩ – ٧٤١هـ = ١٣٠٩ – ١٣٤٠م، بمركز ممتاز بين دول العالم الهامة، شرقية كانت أو غربية، وإذا كان بلاط الناصر أصبح مركزا لسفراء الدول الأوربية الذين حضروا إلى مصر حاملين الهدايا والكتب المرسلة من ملوكهم إلى الناصر يخطبون فيها وده رغبة منهم في حسن معاملة المسيحيين، وتعبيرا عن تقديرهم له نظرا لاتساع نفوذه، فإن هذه العظمة التى شهدتها مصر في تلك الفترة ما لبثت أن زالت بدخول مصر في عصر حكم أولاد الناصر وأحفاده، وهى فترة الضعف والانحلال الذى ران على الحياة السياسية في الداخل والخارج قبل سلطنة برقوق، ولذا فإن ملوك أوربا وغيرهم لم يعملوا على استئناف علاقاتهم بمصر على النحو الذى كانت عليه في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، على أنه لم تكد مصر تقف على قدميها سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م في عهد السلطان برقوق، حتى سارعت الدول المتاخمة لها تخطب ودها وتطلب حمايتها، ولا سيما حين بدأت هذه الدول تستشعر الخطر الذى يتهددها حين بدأ شبح التتار يجتاز أواسط آسيا وغربيها، بظهور تيمور لنك[1] سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، وفى هذه الأثناء عملت مصر من جانبها على أن تكون ملاذا لكل من يلجأ إليها طالبا عونها

---

(١) أصله من سلالة أحد وزراء المغول، وولد بإحدى قرى سمرقند فيما وراء النهر في ٢٥ شعبان سنة ٧٣٦هـ/ ٨ أبريل ١٣٣٦م، واسمه الحقيقى «تمر» ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج، وذلك بسبب جرح أصابه فى فخذه وهو يسرق الغنم، ويعرف تيمور أيضًا باسم «كوركان» أى: صهر الملوك، وما لبث تيمور أن التحق بخدمة حاكم سمرقند، ثم أخضع سمرقند نفسها لحكمه، ومن ثم قوى أمره فضم إليه خوارزم وهراة وسجستان سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م وكذلك شمالى فارس، ثم تحرك أخيرًا نحو العراق وأطراف الإمبراطورية المملوكية، وكانت وفاة تيمور في ١٩ يناير سنة ١٤٠٥م بعد أن حكم ستا وثلاثين سنة.
راجع دائرة المعارف الإسلامية، مادة تيمور، طرخان: المماليك الجراكسة ص٧٢ – ٧٣.

وتأييدها، فعلى حين رغب جيرانها من أصحاب سِنْجار[١] وقَيْصَرية[٢] وتَكْرِيت[٣] سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م في تبعيتهم للسلطان برقوق وجعلوا خطبة الجمعة باسمه، استجاب برقوق لمطلبهم وكتب لكل منهم تقليدًا بنيابة السلطنة في بلده[٤]، وعلى حين بدأت طلائع جيوش تيمور لنك تتحرك نحو البلاد المتاخمة للحدود الشرقية للإمبراطورية المملوكية، أرسل أصحابها إلى السلطان برقوق بسفرائهم يستحثونه على اليقظة والاستعداد، فوصلت الأخبار من أمير ماردِين[٥] إلى القاهرة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م بأن ثائرا من المغول يدعى تيمورا قد استولى على البلاد، ووصلت طلائع جيوشه إلى تَبْرِيز[٦] وخربتها[٧].

وسرعان ما تأكدت هذه الأنباء رسميا برسالة أخرى إلى القاهرة من الخان أحمد بن أُوَيْس الجلائرى سلطان بغداد، يستحث فيها السلطان برقوق على اليقظة ويحذره من تيمور لنك[٨].

---

(١) سنجار من مدن الجزيرة المشهورة في لحف جبل (ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع جـ٢ ص٧٤٣) وما زالت سنجار من المدن العامرة فى شمالى العراق، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية حاشية رقم ٣٥ ص١٢٩.

(٢) رسمها صاحب مراصد الاطلاع (جـ٣ ص١١٣٩) بالسين، واكتفى في تعريفه إياها بأنها مدينة كبيرة في بلاد الروم، وقد كانت قيصرية في زمن بنى سلجوق ثانية مدن الروم، وفى مطلع المائة التاسعة كانت قيصرية أولى المدن الكبرى التى استولى عليها جيش تيمور لنك في آسية الصغرى، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص١٧٨.

(٣) تكريت: بلد مشهور بين بغداد والموصل، وتقع على ضفة دجلة الغربية، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع جـ١ ص٢٦٨.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٩٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٧٦.

(٥) ماردين: هى قلعة على جبل بالجزيرة الفراتية مشرفة على دنيسر ونصيبين، ولا تزال قائمة في الشرق من الرها، وتقع حاليا في تركيا، وهى محطة حديدية على بعد ٤١١ك م حلب، راجع أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ حاشية ١ ص٦٠.

(٦) تبريز: أشهر بلدة بأذربيجان، وكان لها كرسى بيت هولاكو من التتار، وهى مدينة عامرة ذات أسوار محكمة، وهى اليوم (القرن التاسع الهجرى) أم إيران جميعا لتوجه القاصد من كل جهة إليها، ولها محط رحال التجار، انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٨ حاشية ١ ص١١٩.

(٧) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص٤٩.

(٨) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣١٢.

وهنالك أرسلت حكومة المماليك أحد عيونها وهو الأمير طُغَاى، لتقصى الحقيقة بلا إمهال، وعاد هذا الأمير في رجب سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م يحمل إلى برقوق أنباء مزعجة، فقد دخلت طلائع جيش المغول بلاد الجزيرة العليا وآسيا الصغرى، دخلت الرها وملطية بعد أن فرقت جند قَرَا محمد أمير التركمان(١).

وإذ تأكد برقوق من هذه الأنباء، دعا على الفور إلى عقد مجلس الجيش للتشاور فى أمر تيمور لنك، وكان القرار بإنفاذ حملة كبيرة وهى التجريدة التى خرجت من القاهرة فى رجب سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م وتوجهت إلى حلب(٢)، ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير أَلْطُنْبُغَا الجُوبَانِي نائب الشام(٣).

ولقى الجيش المملوكى فى طريقه بعضا من فلول جيوش تيمور، إذ تمكنت قوات قره يوسف التركمانى أمير الشاه السوداء أن توقع الهزيمة بفرقة من جيش تيمور كانت بقيادة ابنه الذى لقىَ مصرعه فى هذه المعركة، كما أسر أطلمش قَرِيبُ تيمور وَأَبْرَعُ قواده وأرسل إلى القاهرة(٤).

وعادت الحملة المملوكية إلى حلب ثم إلى القاهرة سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م على حين رَحل تيمور لنك إلى بلاده(٥).

وفى منتصف عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م عادت طلائع جيش تيمور تهدد المنطقة مرة أخرى، ووصلت الأخبار إلى برقوق على يد قاصد من عند أمير مارِدِين بأن تيمور لنك استولى على تِبْرِيز، كما أرسل صاحب بِسْطام رسالة إلى القاهرة يستحث فيها السلطان برقوق على اليقظة ويخبره بأن تيمور لنك قد استولى على

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٨٦.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٦٣ – ٥٦٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٨٦ – ٣٨٧.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٤٩.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٨٧، طرخان: المماليك الجراكسة ص٧٣ – ٧٤.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٤٨، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٨٧.

شيراز[١]، كما استحثت بعثة أرسلها السلطان العثمانى بايزيد الأول، الحكومة المملوكية على اتخاذ الاحتياطات الحربية اللازمة لمواجهة تيمور لنك[٢].

وفى الوقت نفسه أرغمت طلائع جيوش تيمور سلطان بغداد أحمد بن أويس إلى مغادرة بلاده، واستولت على بغداد سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م[٣].

ومع ذلك حاول تيمور أن يخطب ود برقوق، إذ بعث إليه برسالة يدعوه فيها إلى تقوية أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل، وأن يمكن تجاره من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين[٤].

لم يرد برقوق على هذه الرسالة، وإنما أمر بقتل سفير المغول[٥]، وأعلن عداءه الصريح لتيمور لنك طارحا بذلك كل ما تمليه عليه الفطنة في مثل هذا الموقف.

وبدا برقوق يشعر بخطر تيمور لنك ويشك في نواياه، ولذا عمل من جانبه بسرعة على تلافى هذا الخطر، فكوَّن حلفا سريعا مع القوى التى بدأت هى الأخرى تستشعر خطر تيمور لنك، مثل صاحب سيواس ومغول القَفْجاق[٦] وسلطنة العثمانيين[٧].

واستقبلت مصر فى نفس الوقت أحمد بن أويس سلطان بغداد وعدو تيمور لاجئا إليها، فأحسن استقباله السلطان برقوق في صفر سنة ٧٩٦هـ/ ديسمبر ١٣٩٣م، وبالغ فى إكرامه كما تزوج من ابنة أخيه[٨].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٧٨٧ - ٧٨٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٥٣.

(٤) الغيانى: التاريخ الغيانى ص١٨٨ - ١٨٩، انظر نص الرسالة بالملحق رقم ٣ ص٢٠٣.

(٥) موير: دولة المماليك ص١١٧.

(٦) القفجاق: جنس من الترك يسكنون صحارى تسمى صحارى القفجاق، أهل حل وترحال، على عادة البدو، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٥٦.

(٧) Wiet: op. cit. PP. 518 – 519.

(٨) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٤، ٤٦٦.

وإذ تطورت الأمور إلى هذا الحد، أخذ برقوق يستعد بحملة كبرى يقودها بنفسه لمحاربة تيمور لنك، وبينما هو مشتغل بإعداد هذه الحملة وصلته رسالة ثانية من تيمور يعنفه فيها على قتله لسفيره السابق، كما ينكر عليه إيواءه لسلطان بغداد أحمد بن أويس[١].

ولكن برقوق أظهر ثباتا، ورد على تيمور لنك بأسلوب أشد لهجة وأكثر عنفا، كما طرد رسول تيمور لنك من القاهرة[٢].

وفى ربيع الثانى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، خرج برقوق على رأس حملة حربية متجها نحو الشام لإعادة أحمد بن أويس إلى بغداد ومحاربة تيمور لنك[٣]، وفى هذه الأثناء كان تيمور لنك قد قرر العودة مسرعا نحو بلاده، وذلك حين بلغه أن طَقْتَمُش خان صاحب بلاد القَفْجاق هاجم بلاده فاضطر إلى الاشتباك معه، ومن هناك زحفت قوات تيمور شرقا نحو الهند، على حين ترك بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه[٤].

وظل السلطان برقوق مجدًّا في سيره بجيشه صوب الشام على الرغم من تأكده بأن تيمور لنك غادر المنطقة واتجه إلى بلاده.

ووصلت طلائع جيش برقوق إلى دمشق في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م[٥]، ولم تحدث وقتذاك إلا بضع مناوشات حربية، وقام برقوق بتعيين عدد من رجاله للدفاع عن الحدود الشامية، وعلى هذا استقبلت قلاع ملطية وطرسوس والرها وقلعة الروم قوادًا جددًا على مستوًى من الكفاءة التى تتطلبها الظروف في مثل هذه الأحوال[٦].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٠٣ – ٨٠٥، ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٧٠، انظر نص الرسالة بالملحق رقم ٤ ص٢٠٤.

(٢) ابن عربشاه: المصدر السابق ص٧٠ – ٧١، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٥ ص٢٠٦.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٣ – ٣٨٤.

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ١ ص٤٧٣، العزاوى: تاريخ العراق جـ٢ ص٢١٩ – ٢٢٠.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٥٦.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٩ – ٤٧٠.

كما نجح أحمد بن أويس في استعادة بغداد بمساعدة المماليك له، ثم شرع في بناء سورها وتعميرها[١]، وبذلك صارت بغداد نيابة تتبع حكومة برقوق منذ ذلك الحين[٢].

وتمكن ابن أويس من الاحتفاظ ببغداد عدة سنوات ضد الهجمات الخاطفة من بعض رجال تيمور، ولم يتمكن تيمور من استرداد بغداد ثانية إلا بعد وفاة السلطان برقوق.

على أن السلطان برقوق ظل مقيما بالشام لفترة طويلة وهو يراقب حركات تيمور[٣].

وكيفما كان الأمر فقد قرر برقوق العودة إلى القاهرة بعد أن تأكد من ابتعاد الخطر المغولى عن البلاد الشامية[٤]، ومات برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته فى حرب المغول.

وهكذا برهن برقوق على زعامته للعالم الإسلامى والحرص على وحدته، كما برهن على قوته بين دول الشرق الإسلامى كله، لدرجة أفزعت تيمور لنك، حتى إنه لم يجسر على التقدم نحو البلاد الشامية إلا بعد أن وصلته الأنباء بوفاة السلطان برقوق، وما تبع وفاته من تفكك في الداخل والخارج.

ومهما يكن من أمر فقد أظهر تيمور سروره لوفاة السلطان برقوق[٥]، ومن ثم بدأ فى تجهيز جيوشه للانقضاض على الدولة المملوكية قبل أن تتمكن حكومتها الجديدة من تنظيم صفوفها أو محاولة الاتصال بحلفائها.

وكانت الاضطرابات قد سادت بعض دول المنطقة غداة وفاة السلطان برقوق، فقد اضطربت الأحوال في بغداد نتيجة لسياسة القسوة والعنف التى اتبعها

---

(١) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٠.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨١٤، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٦١.

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ١ ص٤٧٥.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص٤٦، الشوكانى: البدر الطالع جـ١ ص١٧٤.

سلطانها أحمد بن أويس، مما كان سببا فى ثورة الأمراء عليه وطرده، وما لبث تيمور أن انقض على بغداد في سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م واستولى عليها[١].

وفوق ذلك فإن التحالف الذى كان بين السلطان برقوق وبين بعض دول المنطقة فقد أهميته بعد وفاة السلطان برقوق.

فقد رفضت مصر محالفة السلطان العثمانى بايزيد الأول أو الوقوف بجانبه في وجه الخطر التيمورى، بسبب استيلاء العثمانيين على بعض البلدان التابعة للحكومة المملوكية عقب وفاة برقوق[٢].

وهكذا أخطأ السلطان فرج كما أخطأ أمراؤه في هذه السياسة، وكان الأولى بالحكومة المملوكية أن تتعاون مع السلطنة العثمانية في مثل هذه الظروف الحرجة، وأن يظهر السلطان فرج بمظهر والده الذى حرص على تزعم العالم الإسلامى والزود عن وحدته.

وكيفما كان الأمر فقد زحف تيمور نحو هذه المناطق التى لم يجرؤ على التقدم نحوها فى أيام السلطان برقوق، وعندما سمع السلطان فرج بعودة تيمور إلى الشام وبأنه استولى على حلب وأخذ يهدد دمشق، خرج من مصر على رأس جيش كبير في العاشر من ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م[٣].

وعلى حين وصل السلطان فرج إلى دمشق ٦ جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ/ يناير ١٤٠١م، وجد أمراءها منقسمين بسبب الهزيمة التى حلت بالجيش المملوكى فى حلب، فقد عزا الجراكسة هذه الهزيمة إلى دَمُرْدَاش التركى نائب حلب، واتهموه بتواطئه مع الأعداء بغضا منه في الجراكسة وأنه لو ثبت بجيشه في حلب لأمكنه أن يهزم تيمور لنك[٤].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص١٠٨.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص٥٥، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٤٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ٢ القسم الثانى ص٦٠٣.

(٤) ابن قاض شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ١٧٤ - ١٧٥.

وكيفما كان الأمر فقد ظل السلطان فرج مقيما بدمشق مدة أسبوعين تقريبًا، وفى خلال ذلك اشتبكت جيوشه مع جيوش تيمور لنك ثلاث مرات دون أن يحرز كل من الجيشين نصرا على الآخر[١].

وأدرك الناصر فرج حرج موقفه فى الشام بعد ما بدا من كبار العسكريين أن ما بقى لديهم من قوات صار لا يكفى للهجوم على تيمور لنك، وإنما يكفى للدفاع فقط[٢].

وفوق ذلك فوجئ السلطان باختفاء جماعة من أمرائه، وأشيع توجههم إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسى، فلم يسع أنصار فرج إلا أن أجبروه على العودة إلى مصر[٣].

وهكذا غادر فرج دمشق خفية وهى في أسوأ حال.

وبفرار السلطان فرج وكبار مستشاريه العسكريين غدت دمشق بغير قيادة عسكرية، ولم يبق بها سوى أربعة أمراء صغار، لا تعدو رتبة كل منهم وظيفة أمير عشرة[٤].

وتركت أمور الدفاع عن المدينة للأهلين الذين كانوا يطاردون بعضا من أفراد العدو خارج المدينة، ولكنهم عادوا فأغلقوا أبواب المدينة في اليوم التالى لفرار السلطان فرج، وظلوا يقاتلون من فوق السور ببسالة نادرة[٥].

وكان تيمور قد لجأ في هذه الأثناء إلى الحيلة والدهاء، عندما عرض على أهل دمشق رغبته فى الصلح[٦]، ومن ثم اعتمدت مدينة دمشق على فريق من القضاة فى إسداء المشورة وإدارة شئونها، ولا سيما ما يتصل بالمفاوضات مع تيمور لنك.

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٣٦٧.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢٣٥.
(٣) ابن خلدون: نفس المصدر والصفحة، المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٤٤ - ١٠٤٥.
(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٨٤.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٤٦.
(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص١٣٧، فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ص١٠٣.

وانتخب أهل دمشق القاضى برهان الدين بن مفلح الحنبلى سفيرا لهم، لأنه كان يجيد الفارسية والتركية، وأنزلوه بحبل من السور، وبصحبته خمسة من كبار العلماء بدمشق، من بينهم ابن خلدون[١].

ظل هذا الوفد يتردد بين أهل دمشق وبين تيمور وهو يأتيه بالأموال والدواب والأسلحة التى طلبها تيمور بمقتضى الاتفاق الذى تم بينه وبين ابن مفلح[٢].

وعلى الرغم من كل ذلك فإن تيمور لنك لم يقنع بما جباه ابن مفلح من أهل دمشق من الأموال، بل طالبه بالمزيد منها، وحين عجز ابن مفلح عن الاستمرار في جباية الأموال، قبض عليه تيمور لنك[٣].

ولم تلبث جيوش تيمور لنك أن انقضت على المدينة ودخلتها أفواجا تعبث فيها نهبا وتخريبا، وهكذا انتقم تيمور من المدينة أبشع انتقام حين سبى نساءهم وأضرم النار فيها، حتى فنيت مساجدها ودورها وأسواقها وتحولت إلى أطلال بالية[٤].

وكان بمقدور الحكومة المملوكية أن تمنع هذه الكارثة أو تقلل من أضرارها لو أنها قبلت التحالف مع السلطنة العثمانية في مثل هذه الظروف الحرجة، على أن هذا الموقف من جانب الحكومة المملوكية قد سبب استياء شديدا لبعض المؤرخين المعاصرين كأبى المحاسن، الذى أخذته الحسرة على عدم الوحدة بين القوتين العثمانية والمملوكية، وأشار ـــ نقلاً عن العسكريين المعاصرين ـــ إلى أنه لو تم هذا التحالف يومئذ، لأمكن تعويض الدراية الحربية التى كان يفتقدها الجيش

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٣٦٧ – ٣٦٨، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، القسم الثانى ص٦١٠ – ٦١١.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٤٦ – ١٠٤٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٦١٤، فيشل: لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ص١٥٥.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢٤٥ – ٢٤٦.

المملوكى وقتئذ عن طريق تفوق الجيش العثمانى في الفنون الحربية، ولأمكن أيضًا تعويض قلة الجند العثمانى بالكثرة المتوفرة في الجيش المملوكى[١].

على أن كارثة دمشق ـــ والحالة هذه ـــ لم تكن مجرد كارثة حربية وحسب وإنما هى فوق ذلك كارثة حضارية، أدت إلى انحطاط الفنون وتأخرها في المنطقة لفترات طويلة، نتيجة لترحيل أرباب الصنائع والمهن المختلفة إلى سمرقند.

وثمة نتيجة ثانية لغزو تيمور لهذه المنطقة وانتصاره فيها، وهى أن الانتصار على الدولة المملوكية التى تزعمت العالم الإسلامى وقتئذ كان له أسوأ الأثر في الدول المجاورة، حيث عجز السلطان وولاته عن دفع هذا الغزو.

علاقة برقوق بمغول القفجاق:

أصبحت البلاد الواقعة قرب قزوين وحوض نهر الفولجا من نصيب جوجى ابن جنكيز خان، غداة أن قام جنكيزخان بتقسيم دولته الكبيرة بين أولاده الأربعة، وصارت الدولة الجديدة تعرف باسم مغول القفجاق، أو القبيلة الذهبية، نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى[٢].

وقد خالفت هذه الدولة أبناء جنسها من مغول فارس، فنشأت أواصر الصداقة بينها وبين المماليك البحرية في مصر على عهد السلطان بيبرس البندقدارى (٦٥٨ – ٦٧٩ هـ = ١٢٦٠ – ١٢٧٩م) وذلك بعد أن اعتنق رئيسها بركة (١٢٥٦ – ١٢٦٧م) الإسلام، ودخل في حلف مع السلطان بيبرس ضد مغول فارس[٣].

وبذلك توثقت عرا الصداقة بين الدولتين بعد أن ربطت بينهما الروابط الروحية والإحساس بالخطر المشترك من جانب مغول فارس.

---

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص٢١٧.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٣٠، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٢٢٦.

(٣) سرور: دولة الظاهر بيبرس ص١٠٢ – ١٠٣.

ولم يكن لوفاة بركة خان سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م، تأثير على هذه العلاقات في عهد خلفه مَنْكُوتَمُر، بل استمر تبادل البعثات السياسية بين الدولتين بقصد التضييق على أسرة هولاكو والقضاء عليها[١].

وإذا كان الناصر محمد بن قلاوون قد عمل من جانبه سنة ٧٢٠هـ على تدعيم الصلات بينه وبين مغول القَفْجاق عن طريق المصاهرة بزواجه من «البيت الجنكزخاني»[٢] فإن هذه العلاقات قد أصابها الفتور بل التوقف في تلك السنوات المظلمة من عصر المماليك على عهد أولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده.

ولم تكد مصر تقف على قدميها في عهد السلطان برقوق حتى أرسل طُقْتَمُش ملك القَفْجاق في سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م بعثة سياسية إلى السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها رسالة من ملكهم، وفيها «إنا نحب أن نكون إخوة كما كان أسلافنا مع أسلافكم»[٣].

وقد تغالى برقوق في إكرام هذا الوفد، حيث استقبل بموكب عسكرى حافل، ضم على رأسه كبار الأمراء والحجاب[٤].

وعلى حين خرج برقوق بجيشه من مصر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م متجها نحو دمشق، استعدادا لمواجهة تيمور لنك، لم يلبث ملك القَفْجاق أن أرسل بعثة سياسية أخرى تعرض على برقوق معاونة طقتمش له «وأن يكونوا يدا واحدة على تمر لنك»[٥].

وهكذا ظلت العلاقات بين السلطان برقوق ودولة مغول القفجاق أقوى ما تكون صفاء فى هذه الفترة، حتى تهدمت القبيلة الذهبية أمام هجمات تيمور لنك

---

(١) المقريزى: عقد الجمان جـ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧.
(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ٣٠ ورقة ١٣٨.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠١.
(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١١٥.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٧١.

في أواخر القرن الرابع عشر ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م، ثم تلاشى نفوذها تماما فى القرن الخامس عشر[١].

العلاقة بين مصر والدول العربية الآسيوية:

(أ) بلاد الحجاز:

ارتبط أشراف الحجاز برابطة التبعية للسلطان برقوق الذى كان يلقب بسلطان مصر والحجاز[٢].

وقد حرص السلطان برقوق أن تكون مساعداته الاقتصادية لأهل مكة جزءاً من سياسته العامة نحو الحجاز، فكان يبعث فى كل سنة إلى الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحا تفرق على سكان الحرمين والمجاورين فيه[٣].

كما أبدى برقوق اهتماما خاصا بعمارة الحرم النبوى وإرسال الكسوة إليه[٤].

على أن عناية السلطان برقوق لم تقتصر على هاتين الناحيتين، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز، وأخذت الطابع الاقتصادى التجارى، نظرا لاعتماد برقوق على التجارة كمورد هام من موارده، الأمر الذى جعله يسند وظيفة الإمرة في مكة إلى أمراء أقوياء، يدينون له بالطاعة حتى يضمن أمان شواطئ ينبع وجُدّة وطرق القوافل التى تخترق الحجاز، وتجعل من مكة سوقا تجاريا هاما[٥].

---

(١) سعيد عاشور: المماليك البحرية ص٥٠.

(٢) Dopp: L'Egypte au commencement de quizieme siecle d'apres le traite d'Emmanuel piloti de crete p. 41.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٠٩، الرشيدى: حسن الصفا ورقة ٣٩.

(٤) الفاسى: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ٣ ص١٩٦، الرشيدى: المصدر السابق ورقة ٤٠.

(٥) حكيم أمين: دولة المماليك الثانية ص١٥٥.

(ب) بلاد اليمن:

لم تكن العلاقات ودية بصفة دائمة بين اليمن وسلاطين مصر الأقوياء في الدولة المملوكية الأولى، وإنما تخللها فترات رغبت فيها اليمن في الانفصال عن المماليك، كما أظهرت عصيانها نحوهم.

وظهرت بوادر هذا العصيان والرغبة في الانفصال عن المماليك بصورة واضحة على عهد الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنته الثانية، وذلك عندما رفض الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود بن يوسف بن رسول، الهدية التي اعتادت اليمن إرسالها إلى سلطان مصر في كل عام، الأمر الذي ترتب عليه إرسال إنذار إلى ملك اليمن في سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م، بسبب لجوئه إلى هذا المسلك العدائي مع سلطان مصر وقتئذ[١].

ثم تزايد العداء بين مصر واليمن أثناء سلطنة الناصر محمد الثالثة، وذلك عندما قدم إلى مصر سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، «رسول صاحب اليمن بهدية، فقُيد وسجن، لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان بهدايا، فأخذها صاحب اليمن، وقتل بعض من كان معها، وحبس بعضهم»[٢].

وإذا كانت العلاقات بين مصر واليمن قد أصيبت في بعض الأوقات بالفتور والضعف على هذا النحو قبل سلطنة برقوق، فقد حرص السلطان برقوق على أن تكون العلاقة بينه وبين اليمن ودية، وذلك منذ اعتلائه عرش السلطنة.

وربما كان من أهم أسباب حرصه على صفاء هذه العلاقات، هو العمل على ضمان سلامة التجارة الشرقية ومرورها باليمن دون أن تتعرض للخسائر من جانب حكام اليمن.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٨ ص٢٢٦، على إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية ص١٣٥.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٤ ص١٠١.

ولهذا السبب كان السلطان برقوق هو البادئ بإرسال الهدايا سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م إلى الأشرف إسماعيل ملك اليمن، ثم توالت هدايا الملك الأشرف من هذه السنة[١].

ولم تقف العلاقات بين اليمن ومصر عند تبادل الهدايا، بل تجاوزتها إلى تبادل المكاتبات، وثمة مكاتبات دارت بين الطرفين حرص فيها الأشرف إسماعيل ملك اليمن على الإعراب عن ولائه للسلطان برقوق، كما يبدو من الرسالة التي أرسلها الأشرف إسماعيل إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م، وفيها يؤكد الأشرف إسماعيل ولاءه لبرقوق ويطلب منه السماح له بالحج وتسفير المحمل، كما زود صاحب اليمن سفيره إلى برقوق بهدية حافلة[٢].

وهكذا ظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن، ما دام صاحب اليمن يعمل من جانبه على ضمان سلامة التجارة الشرقية في مرورها باليمن[٣].

العلاقات مع الدول الإسلامية فى شمال أفريقية:

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقية ـــ وهى: دولة بنى حفص بتونس، ودولة بنى زيّان بتلمسان، ودولة بنى مَرين بفاس والمغرب ـــ فقد تنوعت العلاقات بينها وبين مصر فى عصر السلطان برقوق، فكانت هناك روابط الجوار والإسلام والتبادل الثقافى، ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجازا لحجاج المغرب إلى أرض الحجاز، وأخيرًا هذه العلاقات التجارية المتعددة بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية[٤]، وقد أشار ابن خلدون إلى أنه أتى إلى مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة[٥].

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص١٨٢.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٧٢ – ٧٦، انظر نص المكاتبة بالملحق رقم ٦ ص٢٠٩.

(٣) Dopp: op. cit. P 42 nots. 1.

(٤) Dopp: op. cit. P.P. 57 - 59.

(٥) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٢٤٥.

والمعروف أن السلطان برقوق تولى عرش مصر في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، وهو نفس الشهر الذى وصل فيه إلى مصر ابن خلدون قادما من بلاد المغرب[١].

والملاحظ أن وصول ابن خلدون إلى مصر كان من العوامل التى ساعدت على استمرار العلاقات بين مصر وسلاطين المغرب، فقد عمل من جانبه على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطان برقوق.

وتجلت هذه الروابط حين طلب ابن خلدون من السلطان برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله صاحب تونس لكى يرسل إليه أهله وولده، استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصى في ١٥ صفر سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م خطابا يرجوه فيه أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر[٢] وسرعان ما لبى السلطان الحفصى طلب برقوق وبعث بسفينة محملة بالهدايا وعليها كذلك أسرة ابن خلدون، وعلى حين اقتربت السفينة من الإسكندرية هبت عليها العواصف فأغرقتها وغرقت معها أسرة ابن خلدون، ولم ينج من هذه الكارثة سوى رسول السلطان الحفصى، فأكرمه برقوق ورده إلى بلاده وصحبته هدية حافلة[٣]، على أن هذا لا يعنى أن العلاقات بين برقوق والسلطان الحفصى أبى العباس اقتصرت على تبادل الهدايا والمجاملات، ولكنها تجاوزتها إلى المسائل السياسية فعندما علم السلطان الحفصى أبو العباس بنبأ خلع برقوق فى جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م استاء لذلك استياء شديدا، وظل يراقب ما يجرى بمصر، ويستطلع جلية الأمر ويستكشفه من أبناء تونس القادمين من مصر[٤]، وحين وصلته الأنباء بعودة برقوق إلى عرشه مرة أخرى في سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م سارع بإرسال بعثة سياسية إلى القاهرة محملة بالهدايا

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٨٠.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٢٤٩.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٤٧٩ - ٤٨٠.

(٤) ابن خلدون: نفس المصدر والجزء ص٥٠١.

ومعها كتاب إلى السلطان برقوق بالتهنئة بالعودة إلى ملكه[١]، ويبدو من العبارات التى ذكرها القلقشندى أن ثمة خطابات تبودلت في هذا الشأن بين السلطان الحفصى أبى العباس أحمد من جهة[٢]، وبين السلطان برقوق من جهة أخرى[٣].

هذا عن العلاقات بين السلطان برقوق ودولة الحفصيين في تونس، أما عن العلاقة ببنى مَرِين في فاس فقد اتسمت هى الأخرى بروح المودة والإخاء في هذه الفترة.

ويكفى أن السلطان أبا العباس أحمد بن أبى سالم قبل شفاعة السلطان برقوق فى يوسف بن على بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب وكان يوسف قد لجأ إلى القاهرة سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م ناجيا من سخط السلطان أحمد بن أبى سالم[٤].

وعلى حين رغب السلطان برقوق سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م في شراء الخيول من المغرب بعث برسائله وهداياه إلى سلطان[٥] بنى مرين بفاس، وعادت رسل برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة[٦]، على أن هذه العلاقات أيضًا لم تقتصر على تبادل الهدايا والمجاملات، بل تعدتها إلى المسائل السياسية، فقد وقف بنو مرين من سلطنة المماليك فى مصر على عهد السلطان فرج بن برقوق موقف

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٧٢٤.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٧٩ — ٨٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ١ ص: ٢٠١.

(٣) القلقشندى: المصدر السابق جـ٧ ص٣٧٩ — ٣٨٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٢ ص٢٠٢.

(٤) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص٣٣٩ — ٣٤٠، السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: جـ٢ ص١٤٠.

(٥) كان سلطانها وقتئذ هو أبو عامر عبد الله بن أبى العباس بن أبى سالم، وكان قد بويع بعد أخيه أبى فارس عبد العزيز سنة ٧٩٩هـ، توفى سنة ٨٠٠هـ، السلاوى: الاستقصا جـ٢ ص١٤٢.

(٦) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٣٤٠.

المترقب، عندما دهم خطر التتار المشرق العربى أيام تيمور لنك سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م.

ويفهم من العبارات التى ذكرها القلقشندى أن كتابا ورد من صاحب فاس[١] فى هذا الشأن[٢]، وأن ثمة رسالة من السلطان فرج بن برقوق يشرح فيها للسلطان المرينى الأسباب التى دعته إلى مغادرة دمشق والعودة إلى مصر، مبررا ذلك بأنه بلغه أن جماعة من الخونة تركوه وتوجهوا إلى مصر للاستيلاء على السلطة وإقامة سلطان جديد، وأنه لم يسعه إلا الإسراع فى طلبهم، للقبض عليهم، وأن تيمور لنك ظن أننا قصدنا مصر لخوف منه أو فشل، فأخذ فى خداع أهل دمشق حتى سلموها إليه، ثم قام بتدميرها[٣].

والمعروف عن سلطان فاس وقتئذ أنه جهز في سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، ثلاثة آلاف فارس وعشرين سفينة حربية لمساعدة المسلمين في الأندلس أثناء حربهم مع الفرنج[٤].

أما عن العلاقات ببنى زيان فى تلمسان فقد اتسمت كذلك بالمودة حيث تبادل سلطانها الهدايا مع السلطان برقوق، وفى حين رغب السلطان برقوق سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م في شراء الخيول من المغرب، بعث برسائله وهداياه إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حَمّو، فاستجاب أبو زيان لطلبه، وعادت رسل برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيول المنتقاة[٥].

---

(١) كان سلطانها وقتئذ هو أبو سعيد عثمان بن أبى العباس بن أبى سالم وكان قد بويع بعد أخيه أبو عامر عبد الله سنة ٨٠٠هـ، توفى سنة ٨٢٣هـ، المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٩١٣، جـ٤ القسم الأول ص٥٤٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٠٣، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٧ ص ٢١٠.

(٣) القلقشندى: صلح الأعشى جـ٧ ص٤٠٧ – ٤١١، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٨ ص٢١١.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٤ القسم الأول ص٤.

(٥) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص٣٤١.

وهكذا تعددت العلاقات وازدادات الروابط بين مصر في عهد السلطان برقوق وابنه وبين المغرب العربى، مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وَحْدَة التاريخ العربى منذ الأزمنة السالفة.

سياسية مصر ازاء بلاد النوبة والحبشة:

(أ) بلاد النوبة:

وفيما يتعلق بالنوبة فقد شملتها الاضطرابات منذ أن تغلب الكنوز على عرشها، وأصبحوا يشكلون خطرا على حدود مصر الجنوبية، فهاجموا أسوان سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها، حتى اضطر واليها إلى الهرب، مما حدا بالسلطان برقوق أن يبعث إلى أسوان بحامية عسكرية كبيرة، وأسند قيادتها للأمير حسين بن قرط التركمانى[١]، على أن هذه الإجراءات لم تمنع الكنوز من السلب والنهب، بل عاودوا الإغارة على أسوان مرة أخرى سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م[٢].

وفى سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م، وجد السلطان برقوق فرصته في استعادة سيطرته على إقليم أسوان وبسط نفوذه على النوبة، حين قدم إليه نصر الدين ملك النوبة مستنجداً به ضد ابن عمه، فأظهر برقوق استعداده لمعاونته، وعين على أسوان واليا يدعى إبراهيم الشهابى، وأمره بمساندة الأمير اللاجئ، ثم شفع برقوق لهذا الأمير عند ابن عمه وأعاده إلى بلاده[٣].

وهكذا استعادت السلطنة المملوكية نفوذها في هذه الفترة على أسوان، غير أنه كان نفوذا مؤقتا، إذ سرعان ما اضطربت الأمور في مصر ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، على عهد السلطان فرج بن برقوق بسبب ما حل بالبلاد من مجاعات

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١١٩.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٦٠ - ٨٦١.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٧، العينى: عقد الجمان جـ٢٥ لوحة ٢١، مسعد: الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص١٨١.

وأوبئة ومنازعات بين الأمراء على الاستئثار بالسلطة والنفوذ، وترتب على قصور النيل في هذه السنة خراب إقليم الصعيد «فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان (فرج) في مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين»[١].

(ب) بلاد الحبشة:

أما بالنسبة لبلاد الحبشة، فقد حرص السلطان برقوق أن تكون هذه العلاقات ودية، حيث كانت الكنيستان المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسي، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية، وكان من مظاهر الارتباط بين الكنيستين أن ملك الحبشة كان كلما خلا منصب المطرانية في بلاده، لجأ إلى سلطان مصر يرجوه في أن يأذن لبطريرك الإسكندرية بإرسال مطران جديد إلى الحبشة، ويعلن ذلك بواسطة سفير محمل بالهدايا إلى مصر[٢].

ولذلك عندما تعرضت أسوان للغزو سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م من جانب ملك الحبشة داود بن سيف أرعد، اتجه برقوق إلى علاج هذه المشكلة بالطرق الودية، إذ استدعى متى بن سمعان بطريرك الإسكندرية، وطلب منه أن يكتب إلى صاحب الحبشة باستنكار هذا الهجوم، ويطلب إليه الانسحاب[٣].

وكان ملك الحبشة أشد حرصا على استمرار العلاقات الودية بينه وبين برقوق، حيث لم يتردد عن إجابة الطلب[٤].

على أن العلاقات بين الدولتين لم تقتصر عند هذا الحد، فقد استقبل السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٧م، بعثة حبشية تحمل هدايا الإمبراطور داؤد، وقد حملت الهدية على واحد وعشرين جملا، واشتملت على طرائف بلادهم، وكان

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص١٩٨ - ١٩٩.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص٤٠ — ٤١، المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٣.

(٣) بن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٢٣٢ — ٢٣٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٢٨٩.

(٤) مقدمة مراد كامل لكتاب الحيمى: سيرة الحبشة ص٢١.

من جملة الهدية عدة قدور ملئت بذهب، قد صيغ على هيئة الحمص، وعدة جوار حبشية، وغير ذلك من التحف الغريبة[١].

وإذا كان داود ملك الحبشة رغب في تجنب ما يؤدى إلى إساءة العلاقات بينه وبين السلطان برقوق، فإنه عاد في سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م فى أوائل سلطنة الناصر فرج بن برقوق منتهزا فرصة ضعف هذا السلطان، وتنازع الأمراء على الاستئثار بالسلطة، وهاجم السلطنات الإسلامية في زَيْلَع، وقتل من المسلمين عددًا كبيرًا[٢].

العلاقات مع العثمانيين:

وفيما يتعلق بالروابط بين مصر والدولة العثمانية، فقد اتسمتَ بالتنافس على تزعم العالم الإسلامى وقتئذ.

على أن هذه الروابط قد تحولت إلى شعور ودى متبادل حين تعرض كل من الدولتين للخطر المشترك من ناحية تيمور لنك.

وذلك حين أرسل السلطان العثمانى مراد الأول سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، بعثة سياسية إلى السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها رسالة يتحدث فيها السلطان العثمانى عن تحركات تيمور لنك من تبْريز صوب حدود الدولتين، وأنه ينبغى الاستعداد للوقوف في وجه هذا الخطر الداهم[٣].

ولم يلبث السلطان العثمانى بايزيد الأول أن أرسل بعثة سياسية أخرى إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م، حينَ تأكد لديه اقتراب خطر تيمور لنك، وحملت رسله الهدايا الحافلة إلى السلطان برقوق، كما طلبت منه أن يأخذ حذره من خطر تيمور لنك، وذلك بالاستعداد الحربى واليقظة الدائمة[٤].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٧٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٢٣٧ – ٢٣٨، حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص١٦١.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٤٩، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٢.

كذلك طلب السلطان العثمانى من برقوق تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداويه، فاستجاب برقوق وأرسل له الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير، ومعه كمية كبيرة من الأدوية والعقاقير المطلوبة[١].

على أن علاقة الود بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك تعرضت للفتور والضعف بسبب أطماع العثمانيين، وذلك عندما نجد السلطان بايزيد صديق السلطان برقوق يغير على أطراف الدولة المملوكية بعد وفاة برقوق، ويستولى على مَلَطْية في سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م[٢].

وبالرغم من ذلك فإن بايزيد لم ير حرجا بعد ذلك في أن يطلب محالفة السلطان فرج، حين اقترب منه الخطر التيمورى مرة أخرى سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م غير أن كبار الأمراء في مصر لم يرغبوا في هذا الحلف، وكتبوا له يذكرونه باستيلائه على ملطية[٣].

العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية:

كذلك كانت العلاقات الودية بين مصر والدولة البيزنطية، وقد استأنفت هذه العلاقات على عهد السلطان برقوق بعد أن أصابها الفتور زمن أولاد الناصر محمد ابن قلاوون وأحفاده.

وتجلت هذه العلاقات الطيبة عندما أرسل الإمبراطور حنا الخامس بعثة إلى السلطان برقوق سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، تحمل إليه الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالبنادقة، فأجاب برقوق الإمبراطور البيزنطى إلى طلبه[٤].

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس: جـ١ ص٣٦٥ - ٣٦٦.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٧٨.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢١٧.
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠١، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٢١.

وكذلك كانت العلاقات على عهد السلطان فرج بن برقوق حيث ذكر القلقشندى صورة خطاب من الإمبراطور مانويل إلى السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م، يخطب وده ويوصيه خيرا بالأقباط في مصر[١]، كما بعث إليه بالهدايا الحافلة[٢].

علاقة مصر بالقوى الأوربية:

ارتبطت مصر على عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج بعلاقات عديدة ـ تجارية أو عدائية ـ مع بعض القوى الأوربية في حوض البحر المتوسط، وكان طبيعيا أن ترتبط السلطنة المملوكية في تلك الفترة بالدول الأوربية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط.

بل كان لزاما على هذه السلطنة ـ وهى إحدى قوى البحر المتوسط وصاحبة السيطرة على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ـ أن تكون بينها وبين بعض الدول الأوربية هذه العلاقات[٣].

والمعروف أن البندقية قد ربطتها بمصر العلاقات الودية بسبب صلتها التجارية بسلاطين مصر، الأمر الذى جعلها لا تقدم على التضحية بمصالحها التجارية مع حكام مصر من أجل التيار الصليبى العام[٤].

ولذلك كانت البندقية أول من اهتز لنبأ الهجوم الذى شنه بطرس لوزيجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، فأرسلت بعثة سياسية إلى السلطان شعبان سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، تؤكد له أن السفن التى هاجمت

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢١ – ١٢٢، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ٩ ص٢١٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٨١٢.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٢٦٥ – ٢٦٦.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص٤٣٠، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٧٤ – ٧٥.

الإسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة، وأن البنادقة لم يعملوا من جانبهم على مساعدة الملك بطرس، كما أنهم لم يشتركوا معه[١].

وبسبب الصلات التجارية أيضًا ظلت البندقية تتمتع بمركز ممتاز طوال عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج، وإن كانت علاقاتها بالسلطان فرج قد شابها شيء من الفتور لفترة قصيرة، سرعان ما عادت بعدها إلى ما كانت عليه من الصفاء.

من ذلك أن أندريه جستنيان قنصل البنادقة كان قد تقدم إلى السلطان فرج ابن برقوق سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، يشكو إليه ما تعرض له تجار البنادقة من معاملة غير طيبة من جانب السلطات المختصة بثغر الإسكندرية، وقد عرَّض القنصل بالسلطان حين ذكر له عزمه على تصفية التجارة بين البلدين والعودة إلى البندقية إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه، ولم يكتف القنصل بذلك، بل ألمح للسلطان بأن البنادقة قادرون بعد ذلك على العودة والتمتع بامتيازاتهم، أما السلطان فرج فإنه لم يطرح ما تمليه عليه الفطنة فى مثل هذا الموقف، ولم يرد على تهديده بإجراءات قد تسيء إلى العلاقات بين الدول الأوربية ومصر، وإنما أجابه فى هدوء بأن ما يتوعد به غير ممكن التنفيذ لعدم توحد العالم المسيحى ووجود أكثر من سلطة دينية (بابا) على عكس العالم الإسلامى الذى يتمتع بتوحد السلطة الدينية فى شخص خليفة المسلمين[٢]، مما يفهم منه أن بإمكان مصر فى مثل هذه الظروف تجميع القوى الإسلامية ضد البنادقة إذا ما تعرضت مصر للهجوم.

وكيفما كان الأمر فقد عادت التجارة مع البنادقة مرة أخرى بعد أن تم الصلح بين الجانبين، والذى توسط فيه بيلوتى piloti التاجر الكريتى بمصر، وإن كان السلطان فرج قد اشترط على البنادقة فى هذا الصلح شروطًا قاسية، كما أخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم[٣].

---

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص٧١.

(٢) Dopp: Op Cit p.p 83- 84.

(٣) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص١٥٣.

وهكذا أخذت العلاقات بين السلطان فرج وبين البنادقة في التحسن والازدهار، كما تردد تجارهم من جديد على ثغرى الإسكندرية ودمياط، ولا أدل على ذلك من هذا الكتاب الذى بعث به ميخائيل دوج البنادقة مع رسوله نيقولا البندقى إلى السلطان فرج سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م، وفيه يشير إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية متمتعين بعدل السلطان ورعايته، وفى آخر الكتاب يوصى الدوج السلطان فرج خيرا بالقنصل البندقى، حتى تحصل الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته[١].

أما الجنوية فقد اتسمت علاقاتهم مع السلطنة المصرية بالقرصنة في أغلب الأحيان، وعلى حين ازدادت هجماتهم على الشواطئ المصرية في أوائل حكم السلطان برقوق، فقد عهد برقوق في سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، إلى الأمير ألطنبغا الجوبانى بتدعيم القوى البحرية على شواطئ الدولة لتأديب الجنوية ودفع خطرهم[٢]، وقد حدثت عدة اشتباكات قرب سواحل دمياط في سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية، وانتهت بقتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم، كما غنم المماليك منهم غنائم عظيمة، ثم عرض الأسرى على السلطان فقتل بعضا منهم وأبقى على البعض الآخر[٣].

وعلى الرغم من هذا الانتصار فقد عمل السلطان برقوق على الاستعداد بحملة جديدة لتأديب الجنوية مرة أخرى، وحين وصلت إلى مسامعهم هذه الاستعدادات أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق في سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م كما قدموا له الهدايا الحافلة[٤].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٣ – ١٢٤، انظر نص الخطاب بالملحق رقم ١٠ ص٢١٥.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٩٥، ١١٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠٢، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة ٧٨٧هـ، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦٠.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١، ص١٢٢ – ١٣٤.

غير أن الجنوية عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة من جديد والاعتداء على سفن المسلمين فى شرق البحر المتوسط سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، فأغاروا على بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وأسروا من فيها، وكان من بين هؤلاء الأسرى مجموعة من أقارب السلطان، الأمر الذى أغضب برقوق وجعله يصادر ممتلكات الجنوية، ويقبض على عدد كبير منهم(١)، مما أرغم الجنوية على اللجوء إلى مفاوضة السلطان حتى يعدل عن قراره بمصادرة أموالهم والإفراج عن رعاياهم مقابل إطلاق سراح الأسرى(٢).

وفى تاسع عشر المحرم سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، قدم رسل الجنوية بالأسرى ومعهم هدية من ملك جنوا إلى السلطان برقوق، فقبل السلطان الهدية وأخلع عليهم(٣).

ولم يلبث الجنوية أن عادوا إلى نشاطهم العدائى مرة أخرى على عهد السلطان فرج بن برقوق، فأغار قراصنتهم على طرابلس الشام سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، واستولوا على سفينتين من السفن التجارية كانتا محملتين بالبضائع إلى مصر(٤).

وبعد ذلك بعامين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس قوة بحرية كبيرة على عزم أن يضرب الإسكندرية، غير أن حملته سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م باءت بالفشل، وذلك بسبب الاحتياطات التى اتخذها السلطان فرج بن برقوق(٥)، لعلمه سلفا بمهمة De Boucicaut ومراقبة تحركاته(٦).

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ القسم الأول ص٢٣، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٥٢.

(٢) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص٣٥٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٧٤.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١، ص٣٦٤، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٨٢.

(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ١٩٥.

(٥) Dopp: Op. Cit p.O. 89 – 90.

(٦) Ibid: p. 87.

على أن الجنوية عادوا في سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م ليعرضوا مفاوضاتهم على السلطان فرج بشأن إعادة العلاقات بين الدولتين، وانتهت هذه المفاوضات بالصلح، على أن يدفع الجنوية مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضا عن الخسائر التى أحدثوها، وفى حالة ما إذا تكررت هذه الحوادث مرة أخرى فإن الحكومة المملوكية سوف تقبض على الجنوية بمصر وتصادرهم جميعا[١].

وهكذا توقفت أعمال القرصنة من جانب الجنوية، كما أخذت العلاقات بين جنوة ومصر في التحسن والازدهار.

وليس أدل على ذلك من هذا الكتاب الذى ورد إلى السلطان فرج بن برقوق في صفر سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة[٢] بقبرص، وفيه يتحدث القبطان عن علاقات المودة والسلم القائمة بين جنوة ومصر، كما يلتمس من السلطان فرج حسن معاملة التجار الجنوية في مصر ونشر العدل بينهم، وقد أوضح القبطان فى رسالته أن المراكب الجنوبة لا تتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمى مصر من التجار والمسافرين، وكذلك حماية الموانى الإسلامية من هجمات القراصنة الأجانب[٣].

ومما ملاحظة على أعمال القرصنة السابقة التى قامت بها جنوة، واشتركت معها في بعض الأحيان صقلية وبيزا، كما انضمت إليهما قراصنة من الروادسة والقبارصة[٤].

وهى أن هذه الأعمال كانت ترتبط دائما بانشغال السلطان برقوق بالنِّزاع الداخلى مع العناصر المناوئه لحكمه، أو استعداده لمواجهة الخطر التيمورى القادم

---

(١) Dopp: op. cit p.p. 94 – 95.

(٢) الماغوصة: الاسم الذى أطلقه العرب على مدينة فاما جوستا، على الشاطئ الشرقى لجزيرة قبرص، المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٣٩ حاشية رقم ٢.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٨ ص١٢٤ – ١٢٥، انظر نص الكتاب بالملحق رقم ١١ ص٢١٧.

(٤) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص١٥١ – ١٥٢.

من الشرق، وكذلك كثرة الفتن والانقسام الداخلى على عهد السلطان فرج بن برقوق.

وقد بلغت أعمال القرصنة أشدها في سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م حين تعرضت اقتصاديات مصر للتدهور بسبب قصور النيل في هذه السنة، وما صحب ذلك من المجاعات والأوبئة.

ومهما يكن من أمر فإن تزامن أعمال القرصنة مع ما يطرأ على الحالة في مصر من اضطرابات يوحى لنا برأى، ولنا أن نتساءل: ألم يكن من بين تجار الفرنج الذين كانوا يترددون على أسواق مصر والشام والذين منحتهم الدولية حرية الإقامة والتنقل، من كان عينا لملوك الفرنج ينقل إليهم أخبار الدولة وأحوالها.

ربما يقوى هذا الرأى أن التاجر الكريتى بيلوتى piloti الذى عاش في مصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادى وأوائل القرن الخامس عشر ــ حين قابل البابا في روما، قدم له كتابا يصف فيه أحوال مصر العسكرية والاقتصادية والسياسية في أوائل القرن الخامس عشر، كما اقترح عليه مشروعًا لمهاجمة مصر[1].

ولا ريب أن بيلوتى كان يعرف الكثير ـ 'لأحوال في مصر زمن السلطان فرج بن برقوق الذى اتسم عهده بكثرة الفتن والاضطرابات الداخلية، بل كثيرا ما توسط بيلوتى فى النـزاع القائم بين السلطان فرن ـن الفرنج.

(١) دراج: المماليك والفرنج ص٢٠٣ - ٢٠٤.

obeikandl.com